

تفسير ابن كثير

يقول تعالى وكما جعلنا في قريتك يا محمد أكابر من المجرمين ورؤوساء ودعاة إلى الكفر والصد عن سبيل الله وإلى مخالفتك وعداوك كذلك كانت الرسل من قبلك يبتلون بذلك ثم تكون لهم العاقبة كما قال تعالى : { وكذلك جعلنا لكلنبي عدوا من المجرمين } الآية وقال تعالى : { وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها } الآية قيل معناه : أمرناهم بالطاعة فخالفوا فدمرواهم قيل : أمرناهم أمرا قدريا كما قال ه هنا { ليicroوا فيها } قوله تعالى : { أكابر مجرميها ليicroوا فيها } قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس { أكابر مجرميها ليicroوا فيها } قال : سلطنا شارهم فعصوا فيها فإذا فعلوا ذلك أهلكرناهم بالعذاب .

وقال مجاهد وقتادة { أكابر مجرميها } عظماً لها قلت : وهكذا قوله تعالى : { وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون * وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين } وقال تعالى : { وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإننا على آثارهم مقتدون } والمراد بالمكر هنا دعاؤهم إلى الضلال بزخرف من المقال والفعال كقوله تعالى إخبارا عن قوم نوح { ومكروا مكرا كبارا } قوله تعالى : { ولو ترى إذ الطالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكننا مؤمنين * قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صدناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين * وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمووننا أن نكفر بـ و يجعل له أندادا } الآية وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا ابن أبي عمر حدثنا سفيان قال : كل مكر في القرآن فهو عمل و قوله تعالى : { وما يicroون إلا بأنفسهم وما يشعرون } أي وما يعود وبالمكرهم ذلك وإضلالم من أضلوه إلا على أنفسهم كما قال تعالى : { ول يجعلن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم } وقال { ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون } قوله تعالى : { وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتي مثل ما أوتي رسول الله } أي إذا جاءتهم آية وبرهان وحجة قاطعة قالوا { لن نؤمن حتى نؤتي مثل ما أوتي رسول الله } أي حتى تأتينا الملائكة من الله بالرسالة كما تأتي إلى الرسل كقوله جل وعلا { وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا } الآية .

وقوله { الله أعلم حيث يجعل رسالته } أي هو أعلم حيث يضع رسالته ومن يصلح لها من خلقه كقوله تعالى : { قالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القرطين عظيم * أهم يقسمون

رحمة ربك } الاية يعنون لولا نزل هذا القرآن على رجل عظيم كبير جليل ميجل في أعينهم { من القرتيين } أي من مكة والطائف وذلك أنهم قبهم الله كانوا يزدرون بالرسول صلوات الله عليه بغيها وحسدا وعندما واستكبارا كقوله تعالى مخبرا عنه : { وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا بهذا الذي بعث الله رسوله } وقال تعالى : { وإذا رأك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا بهذا الذي يذكر آلهتهم وهم بذكر الرحمن هم كافرون } وقال تعالى : { ولقد استهزئ برسلي من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون } هذا وهم معترضون بفضله وشرفه ونسبة وطهارة بيته ومرباه ومنشئه صلى الله عليه وسلم ولائقته والمؤمنون عليه حتى إنهم كانوا يسمونه بينهم قبل أن يوحى إليه [الأمين] وقد اعترف بذلك رئيس الكفار أبو سفيان حين سأله هرقل ملك الروم : وكيف نسبة فيكم ؟ قال : هو فيما ذُو نسب قال هل كنتم تتهمنه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا - الحديث بطوله الذي استدل ملك الروم بطهارة صفاته عليه السلام على صدق نبوته وصحة ما جاء به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن مصعب حدثنا الأوزاعي عن شداد أبي عمار عن واثلة بن الأسعف به أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال [إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل وأصطفى من بنى إسماعيل بنى كنانة وأصطفى من بنى كنانة قريشا وأصطفى من قريش بنى هاشم وأصطفى من بنى هاشم] انفرد بإخراجه مسلم من حديث الأوزاعي وهو عبد الرحمن بن عمرو إمام أهل الشام به نحوه وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة به قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [بعثت من خير قرون بنى آدم فرقنا حتى بعثت من القرن الذي كنت فيه] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو نعيم عن سفيان عن يزيد بن زياد عن عبد الله بن الحارث بن نوفل عن المطلب بن أبي وداعة قال : قال العباس : بلغه صلى الله عليه وسلم بعض ما يقول الناس فصعد المنبر فقال [من أنا ؟] قالوا أنت رسول الله فقال [أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب إن الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه وجعلهم فريقين فجعلني في خير فرقه وخلق القبائل فجعلني في خير قبيلة وجعلهم بيوتا فجعلني في خيرهم بيتك فأنا خيركم بيتك وخيركم نفسا] صدق صلوات الله عليه وسلم عن الحديث أيضا المروي عن عائشة لها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [قال لي جبريل قلب الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجده رجلا أفال من محمد وقلبت الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجده بأفضل من بنى هاشم] رواه الحاكم والبيهقي .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو بكر حدثنا عاصم عن زر بن حبيش عن عبد الله بن مسعود قال : إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد صلى الله عليه وسلم خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه فبعثه برسلاته ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد صلى الله عليه وسلم فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه بما رأاه المسلمون حسنا فهو

عند أَبْنَاءِ حَسَنٍ وَمَا رَأَاهُ الْمُسْلِمُونَ سِيئًا فَهُوَ عِنْدَ أَبْنَاءِ سَيِّدِنَا وَقَالَ أَحْمَدُ : حَدَّثَنَا شَجَاعُ بْنُ الْوَلِيدِ قَالَ : ذَكَرَ قَابُوسُ بْنُ أَبِي طَبِيعَانَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ سَلْمَانَ قَالَ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [يَا سَلْمَانَ لَا تَبْغُضْنِي فَتَفَارَّقْ دِينُكَ] قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ أَبْغُضُكَ وَبَكَ هَذَا نَاسًا ؟ قَالَ [تَبْغُضُ الْعَرَبَ فَتَبْغُضْنِي] وَذَكَرَ أَبْنَاءِ حَاتِمَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ ذَكَرَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُنْصُورِ الْجَوَازِ حَدَّثَنَا سَفِيَّانُ عَنْ أَبِي حَسِينٍ قَالَ : أَبْصَرَ رَجُلٌ ابْنُ عَبَّاسٍ وَهُوَ دَخَلَ مِنْ بَابِ الْمَسْجِدِ فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِ رَاعَهُ فَقَالَ : مَنْ هَذَا ؟ قَالُوا ابْنُ عَبَّاسٍ ابْنُ عَمِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ [أَعْلَمُ حِيثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ] .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { سَيِّئِ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَفَارَ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ } الْآيَةُ هَذَا وَعِيدٌ شَدِيدٌ مِّنَ اللَّهِ وَتَهْدِيْدٌ أَكْيَدٌ لِمَنْ تَكَبَّرَ عَنِ اتِّبَاعِ رَسُولِهِ وَالْإِنْقِيَادِ لِهِمْ فِيمَا جَأَوْا بِهِ فَإِنَّهُ سَيِّئِ الْيَوْمِ الْقِيَامَةِ بَيْنَ يَدِيِّ اللَّهِ صَفَارٌ وَهُوَ الْذَلَّةُ الدَّائِمَةُ لِمَا أَنْهَمُوا إِسْتِكْبَرُوا فَأَعْقَبَهُمْ ذَلَّةً ذَلَّةً الْقِيَامَةِ لِمَا إِسْتِكْبَرُوا فِي الدُّنْيَا كَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَآخِرِينَ } أَيْ صَاغِرِينَ ذَلِيلِينَ حَقِيرِينَ وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ } لِمَا كَانَ الْمَكْرُ غَالِبًا إِنَّمَا يَكُونُ خَفِيًّا وَهُوَ التَّلْطِيفُ فِي التَّحْيِلِ وَالْخَدِيْعَةِ قَوْبَلُوا بِالْعَذَابِ الشَّدِيدِ مِنَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَزَاءً وَفَاقَا { وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا } كَمَا قَالَ تَعَالَى : { يَوْمَ تَبْلَى السَّرَّائِرُ } أَيْ تَظَهَّرُ الْمُسْتَرَاتُ وَالْمُكْنُونَاتُ وَالْمُضَمَّنَاتُ وَجَاءَ فِي الْمُصْحِّحَيْنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ [يَنْصُبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءَ عَنْ دِسْتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ هَذِهِ غَدْرَةُ فَلانِ بْنِ فَلانِ بْنِ فَلانِ] وَالْحِكْمَةُ فِي هَذِهِ أَنَّهُ لِمَا كَانَ الْفَدْرُ خَفِيًّا لَا يَطْلُعُ عَلَيْهِ النَّاسُ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ يَصِيرُ عَلَمًا مَنْشُورًا عَلَى صَاحِبِهِ بِمَا فَعَلَ